الأستاذة: خميسي

محاضرة: المثل والتجربة الإنسانية (نصوص المجذوب).

تمهيد:

يُعدّ المثل الشعبي من أكثر الأجناس الأدبية الشفوية التصاقًا بالحياة اليومية للإنسان، إذ يمثّل خلاصة التجربة الإنسانية في صورتها المكثّفة والموجزة، فالمثل لا يُنتج في فراغ، ولا يُتداول عبثًا، بل ينشأ من موقف اجتماعي أو تجربة حياتية ذات دلالة، ثم يتحوّل بفعل التكرار والتداول إلى قولٍ سائر، تستحضره الجماعة لتفسير الواقع أو الحكم عليه أو توجيه السلوك. ومن هذا المنطلق، فإنّ دراسة المثل في إطار الأدب الشعبي تقتضي الانطلاق من تحديد مفهومه لغةً واصطلاحًا، ثم الوقوف على نشأته وموضوعاته بوصفه نصًا ثقافيًا يعكس وعي الجماعة وتجربتها التاريخية.

أولًا: المثل لغةً

قبل الانتقال إلى التعريف الاصطلاحي للمثل، يجدر بنا الوقوف عند دلالته اللغوية في المعاجم العربية القديمة، لأنّ التصوّر الاصطلاحي ينبني في الغالب على الأساس اللغوي، ويتطوّر عنه أو يتجاوز بعض حدوده، ولفظة المثل في المعاجم العربية نجد بها عدة دلالات، يرى **ابن منظور في (لسان العرب)** أنّ «المَثَلَ هو الشَّبَه، ويُقال هذا مِثْلُ هذا أي شَبَهُه، والمَثَلُ القولُ السائر الذي يُشبَّه به حالُ الثاني بالأوّل»[1]، ويُبرز هذا التعريف عنصر المشابهة

[1]– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، (د ط)، 1414هـ، مادة (م ث ل).

والتمثيل، حيث يقوم المثل على نقل تجربة سابقة إلى وضع لاحق مشابه لها، ويربط **الخليل بن أحمد** لفظ المثل بالتماثل والمشاكلة، إذ يدلّ المثل عنده على «المساواة والمشابهة بين الشيئين»[2]، ويكشف هذا التصوّر عن الجذر الدلالي العميق للمثل، القائم على فكرة القياس والتمثيل، ويعرّف **الفيروز آبادي** المثل على أنه «الحال أو الصفة العجيبة التي يُضرب بها القول»[3]، وهو بذلك يركّز على الطابع البلاغي والوظيفي للمثل، بوصفه قولًا يُستعمل في مواضع مخصوصة.

من خلال التعريفات اللغوية السابقة، يتّضح أنّ المثل في المعاجم العربية فإن المثل يدل على المشابهة والتمثيل، والشيوع والتداول، والارتباط بحالة أو موقف يُستدعى عند تكرار ما يشبهه، وهو قول انتقل من الدلالة على الشَّبَه إلى الدلالة على الحكمة السائرة بين الناس،

ثانيًا: المثل اصطلاحًا

إذا كانت المعاجم اللغوية قد ركّزت على الجذر الدلالي للمثل، فإنّ الدراسات الاصطلاحية، قديمها وحديثها، سعت إلى ضبط مفهومه بوصفه جنسًا تعبيريًا مستقلًا داخل الثقافة العربية، وهو ما أدّى إلى تعدّد التعريفات وتنوّع منطلقاتها، من القدامى الى المحدثين، عرفه ***أبو هلال العسكري*** بأنّه «قولٌ موجز، سائر بين الناس، يُشبَّه به حال الثاني بالأوّل»[4]

---

[2]– الخليل، العين، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السمرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1988، مادة (م ث ل).

[3]– الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مكتبة تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، ط8، 2005، مادة (م ث ل).

[4]– أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

ويكشف هذا التعريف عن التصوّر البلاغي التراثي للمثل، حيث تتأسّس قيمته على الإيجاز وقوة التشبيه. غير أنّ هذا التصوّر يظلّ محكومًا بالبعد اللغوي، دون التوسّع في أبعاده الاجتماعية والثقافية، أما **ابن خلدون** ينظر إلى المثل من زاوية اجتماعية، إذ يرى أنّه جزء من الخبرة المتراكمة للأمم، وأنّه «من قبيل ما تستقرّ عليه العوائد وتتناقله الألسن»[5]، ويُفهم من هذا التصوّر أنّ المثل نتاج اجتماعي، يرتبط بالعمران البشري، ويعكس طرائق التفكير السائد داخل الجماعة.

فالمثل الشعبي يُعدّ من أكثر أشكال النثر الشعبي كثافةً ودلالة، يعرّف **رابح العوبي** المثل السائر على أنه قول محكيّ متداول، أو جملة مقتطعة من سياق كلامي سابق، أُرسلت لذاتها بعد أن انفصلت عن الحادثة التي قيلت فيها أول مرة، وأصبحت تُنقل من موضعها الأصلي إلى كل سياق مشابه لها في المعنى. ويكشف هذا التعريف عن خاصية أساسية في المثل، هي قدرته على تجاوز سياقه الأول ليغدو صيغة عامة قابلة للتداول، تستدعى كلما تكررت الظروف أو تماثلت الدلالات، مما يمنحه طابع الاستمرارية والرسوخ في الذاكرة الجماعية[6].

---

[5]– ابن خلدون، المقدمة، تح: محمد عبد القادر بن سليمان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1967.

[6]– ينظر: رابح العوبي، أنواع النثر الشعبي، منشورات جامعة باجي مختار، الجزائر، د ط ، د ت، ص 41.

ومن زاوية أدبية وجمالية، ينظر **أحمد أمين** إلى المثل بوصفه نوعًا من أنواع الأدب، يتميز بالإيجاز اللفظي مع إحكام المعنى وعمقه، ويقوم على حسن التشبيه، وجودة الكناية، ولطف التصوير. ويرى أن الأمثال ظاهرة إنسانية عامة لا تكاد تخلو منها أمة من الأمم، لما تمثله من خلاصة التجربة البشرية. كما يؤكد أن من أبرز مزايا المثل الشعبي أنه ينبع من مختلف طبقات الشعب، لا من فئة بعينها، الأمر الذي يجعله تعبيرًا صادقًا عن وعي الجماعة وقيمها ونظرتها إلى الحياة، ويمنحه في الوقت نفسه طابعًا ديمقراطيًا من حيث الإنتاج والتداول.

أما **نبيلة إبراهيم**، فترى أن التعريف الأقدر على استيعاب خصائص المثل الشعبي هو تعريف فريدريك **زايلر** الوارد في مقدمة كتابه علم الأمثال الألمانية، ويعرّف **زايلر** المثل الشعبي بأنه قول جارٍ على ألسنة العامة، يتميز بطابع تعليمي واضح، ويأتي في شكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة، ويُبرز هذا التعريف توازنًا لافتًا بين البعد الوظيفي للمثل، بوصفه أداة تعليم وتوجيه، وبين بعده الفني، باعتباره صيغة أدبية مكثفة تتجاوز الكلام العادي من حيث الصياغة والدلالة[7].

وفي السياق نفسه، يعرض **رشيد صالح** في كتابه فنون الأدب الشعبي جملةً من تعريفات الدارسين الغربيين للمثل، قبل أن يبدي رأيه الخاص، في مسعى لتركيب تصور شامل لهذه الظاهرة. ومن بين التعريفات التي يستشهد بها تعريف **تايلور**، الذي يرى أن المثل أسلوب

---

[7]– ينظر : نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الادب الشعبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د ط)، 1974، ص139.

تعليمي شائع، انتقل عبر الطريقة التقليدية الشفاهية، ويُستخدم في الغالب للإيحاء بسلوك معين أو لإصدار حكم على وضع من الأوضاع الإنسانية والاجتماعية. ويبرز هذا التصور الوظيفة التقويمية للمثل، حيث يتحول إلى أداة للحكم والتوجيه الأخلاقي داخل الجماعة.

وتُظهر هذه التعريفات، على اختلاف مرجعياتها، أن المثل الشعبي ظاهرة أدبية وثقافية مركّبة، تتداخل فيها الأبعاد اللغوية والجمالية والتعليمية والاجتماعية. فهو قول موجز، مجازي، متداول، ينبع من التجربة الجماعية، ويؤدي وظيفة تعليمية وتقويمية، وهو ما يفسر مكانته المركزية ضمن فنون النثر الشعبي ويفتح المجال لدراسته بوصفه مرآة لوعي المجتمع وحكمته المتوارثة.

ثالثًا: نشأة الأمثال الشعبية

ترتبط نشأة الأمثال الشعبية بالحياة اليومية للإنسان، إذ تنبثق من مواقف واقعية وتجارب متكرّرة، ثم تُصاغ في قالب لغوي موجز يسهل حفظه وتداوله. ومع مرور الزمن، تنفصل الأمثال عن سياقها الأول لتصبح جزءًا من الذاكرة الجماعية، تعبّر عن تاريخ الجماعة النفسي والاجتماعي.

رابعًا: موضوعات الأمثال الشعبية

تتنوع موضوعات الأمثال الشعبية بتنوّع مجالات الحياة، فتشمل أمثالًا تتعلّق بالعمل والرزق، وأخرى بالحكمة والتجربة، وأمثالًا بالمرأة والأسرة، وأخرى بالقيم الأخلاقية كالصبر

والشجاعة والحذر. ويعكس هذا التنوّع شمولية المثل الشعبي وقدرته على ملامسة مختلف أبعاد التجربة الإنسانية.

تحليل بعض نصوص المجذوب:

تمهيد:

تُعدّ أمثال المجذوب من التعبيرات الحكميّة الخاصة في الثقافة الشعبية، إذ ترتبط بشخصية تبدو على هامش المجتمع، لكنها في العمق تمتلك وعيًا نافذًا وقدرة عالية على تشخيص الواقع، فالمجذوب في المخيال الشعبي ليس مجنونًا بالمعنى الطبي، بل هو كائن متحرر من القيود الاجتماعية، يقول ما لا يجرؤ الآخرون على قوله، ويكشف تناقضات المجتمع بلغة رمزية ساخرة، ومن ثمّ، جاءت أمثاله حاملة لخطاب نقدي غير مباشر، يجمع بين الحكمة والسخرية والمفارقة، ويؤدي وظيفة تعليمية وتقويمية في آن واحد.

المثل الأول:

يقول المجذوب "قالوا له علاش ساكت؟ قال نخاف نهدر نولي عاقل"

تحليل المثل:

يقوم هذا المثل على قلب الدلالات المألوفة، حيث يُقدَّم الصمت بوصفه موقفًا واعيًا، بينما يُنظر إلى (العقل) باعتباره تواطؤًا مع واقع فاسد، ويكشف المثل عن نقد

اجتماعي لاذع لمعايير الجماعة التي تكافئ الصمت وتقصي قول الحقيقة، كما يحمل بعدًا فلسفيًا يتمثل في مساءلة مفهوم العقل نفسه، واعتباره نسبيًا مرتبطًا بالسياق لا بالقيم المطلقة.

المثل الثاني:

ويقول أيضًا :"الدنيا بحر، واللي ما يعرف يعوم يغرق"

تحليل المثل:

يشبّه المجذوب الحياة بالبحر بما يحمله من اتساع وخطر وتقلب، في حين ترمز السباحة إلى الوعي والخبرة والقدرة على التكيّف .ويبرز في هذا المثل البعد التعليمي التحذيري، إذ يدعو الفرد إلى امتلاك أدوات الفهم بدل الاستسلام للواقع .كما يكشف عن رؤية وجودية تعتبر الحياة اختبارًا دائمًا، لا ينجو فيه إلا من امتلك الحكمة.

المثل الثالث:

ومن أمثاله كذلك « شفت الظلم وسكتّ قالوا حكيم، هدرت قالوا مجنون».

تحليل هذا المثل:

يعري هذا المثل ازدواجية المعايير الاجتماعية، حيث يُكافأ الصمت عن الظلم ويُدان الاحتجاج عليه، ويبرز فيه البعد الأخلاقي الذي يدين التواطؤ الجمعي، والبعد النقدي الذي

يكشف آليات الإقصاء الاجتماعي، ويؤدي المثل وظيفة احتجاجية واضحة، إذ يُستعمل للتعبير عن القهر ورفض الظلم.

المثل الرابع:

ويقول المجذوب «اللي يضحك مع الناس كثير، يبكي وحده كثير»

تحليل هذا المثل:

يعكس هذا المثل التناقض بين الظاهر الاجتماعي والباطن النفسي، ويكشف عن معاناة الفرد داخل الجماعة .ويبرز فيه البعد النفسي المرتبط بالاغتراب، والبعد الإنساني الذي يجعل التجربة عامة صالحة لكل زمان ومكان، إضافة إلى البعد الجمالي القائم على الإيجاز والتضاد.

خاتمة:

تُظهر أمثال المجذوب خطابًا شعبيًا مغايرًا، يعتمد الحكمة المغلّفة بالسخرية، ويستخدم المجاز والمفارقة أداةً لنقد الواقع الاجتماعي .فهي أمثال تعليمية في ظاهرها، نقدية في عمقها، رمزية في بنيتها، وتمثل شكلًا من أشكال المقاومة الثقافية الصامتة التي يمارسها الوعي الشعبي في مواجهة القهر والتهميش.